حوار عند الغروب (*)

للقاص الفرنسي بيير لويس

للأديب عبد الغني العطري

« بيير لويس شخصية أدبية فذة لها مكانتها الرفيعة في عالم الرواية والقصة والفكر . ولو لم يكن لهذا الكاتب سوى روايته الخالدة « آفروديت » التي تجري حوادثها في مدينة الأسكندرية ، ولو لم يكن له من أبطاله سوى « كريزيس » صاحبة تمثال « حياة خالدة » لكان ذلك كافيا لجعله في مقدمة زعماء الرواية العبقريين

وكما برع لويس في الرواية فقد برع في القصة والأقصوصة أيضا ، وله في ذلك مجموعة نفيسة سماها « Contes choisis » قصص مختارة ، والقطعة التي نقدمها اليوم لقراء الرسالة الزهراء تحتل المكان الثاني في هذه المجموعة الرائعة . ولعل أقوى مميزات هذه الأقصوصة الحوار الطريف « الساذج » الذي أجراه الكاتب على لسان راعية وراع (ع . ع)

أركاس — أيتها الفتاة ... يا ذات العينين السوداوين المليئتين — لا تهربي !

— لن أهرب ... سأظل بعيداً عنك — كما ترين — يا أخت آفروديت ويا ذات الشعور الجميلة المعقدة على شكل عناقيد من العنب . هأنذا أقف على جانب الطريق دون أن أستطيع الذهاب ، لا إلى الذين ينتظرونني ، ولا إلى الذين خلفتهم ورائي

مليتا — إذهب ! إذهب ! إنك تتكلم عبثاً ، وتفوه بما لا طائلة تحته أيها الراعي من غير غنم ، ويا جوّاب الطرق المشهورة الوعرة إذا كنت لا تستطيع بعد سلوك الطريق العام فاذهب إذن عن طريق الحقول ، على ألا تطأ قدماك مرجي الخضوض . أنت الذي لا أعرفه ... وإلا فاديت واستغثت

— من عساك تنادين في هذه الوحدة ؟

— الآلهة التي تسمعني

— إن الآلهة يا فتاتي الصغيرة بعيدة عنك الآن أكثر مما أنا بعيد عنك بكثير ولو كانت على مقربة منك لما منعتني من إبداء إعجابي بجمالك وسحرك ، لأنها تفخر بوجهك الصبوح وتزدهي وتعلم أنه تحفتها الرائعة

— صه أيها الراعي صه ! إليك عني . لقد حظرت أمي عليّ الإصغاء إلى أقوال الرجال . إني في هذا المكان أرعى نعاجي الكثيرة الصوف وأحافظ عليها إلى أن تتضيف الشمس ثم تأوي إلى مرقدها . يجب عليّ ألا أصغي إلى أصوات الفتيان الذين يمرون بهذا الطريق ، مع أنسام المساء والنبار المتطاير

— ولم ذلك ؟

— لست أدري السبب ، غير أن أمي تعرفه بدلاً مني . . . لم يمض بعدُ ثلاثة عشر عاماً على ولادتها إياي فوق سريرها المصنوع من ورق الشجر ، وسأكون عاقة لها إذا لم أصدع بكل ما تأمرني به

— لم تفهمي يا فتاتي مقصد أمك الرءوم ... إن أمك طيبة عاقلة ، حسناء محترمة . . . لقد حدثتك إذ حدثتك عن البرابرة الذين يجوبون الحقول والأرياف وهم يحملون الجان (١) في يسراهم والسيوف في يمناهم ... هؤلاء يا فتاتي يستطيعون إيذاءك لأنك ضعيفة وهم أقوياء ... لقد قتل هؤلاء الأشرار في المدن التي احتلوها خلال الحروب البغيضة كثيراً من العذارى الحسان اللواتي يضاهي جمالهن جمالك . ولئن عثروا بك في طريقهم فإن يشفقوا عليك . . . أما أنا فأي أذى أستطيع إلحاقه بك ، ولست أحمل سوى جلد الخروف على كتفي ، وهذه العصا في يدي ... أنظري إليّ مليّاً ... أتخيف أنا إلى هذا الحد ؟ ...

— لا أيها الراعي ... لست مخيفاً ... إن ألفاظك عذبة ناعمة ، لذا يمكنني أن أصغي إليها طويلاً ؛ ولكنهم حدثوني فقالوا : إن أعذب الكلام وأحلاه أكثره إمعاناً في الغدر

(*) قطعة من كتاب (من أقاصيص الغرب) الذي سيصدر في أواخر هذا العام

(١) جمع جن

والخداع ، وذلك حين يضمم به شاب فى أذن واحدة منا نحن الفتيات ...

— أأفوز منك بجواب إذا وجهت إليك سؤالاً ؟

— أجل ...

— بم كنت تفكرين تحت الزيتونة السوداء عندما سهرتُ ؟

— لا أريد أن أخبرك به ...

— ولكنى أعرفه !

— قله لى ...

— إذا سمحت لى بالدنو منك ، وإلا فسألزم جانب الصمت ، لا أستطيع أن أقوله إلا همساً ... فى أذنك ، لأنه سرك وليس سرى ... أتأذنين لى بالدنو ... وأن آخذ يدك بين يدى ... !

— قل ... بم كنتُ أفكر ؟

— فى نطاق زقافك ...

— ولكن ... من أنبأكَ بهذا ؟ أكنتُ أتحدث بصوت مرتفع ؟ أأنت إلهٌ أيها الراعى فتقرأ من مسافة بعيدة ما يجول فى خواطر العذارى ؟ ... لا تنظر إلىّ هكذا ... لا تحاول أن تقرأ أفكارى فى هذه اللحظة ... !

— كنت تفكرين بنطاق زقافك وبالرجل المجهول الذى سيحل عقدته ببعض من ألفاظه المسولة العذبة التى تخشينها الآن ... ترى ، أتخلو هذه أيضاً من الخيانة والغدر ؟

— إنى لم أستمع إليها بعد ...

— ولكنك تستمعين إلى كلماتى ، وتنظرين إلى عينىّ ... !

— لا أريدُ بعد أن أراها ...

— ستريانهما فى الحلم ...

— أيها الراعى ... !

— لماذا ترتعشين عندما آخذ يدك فى يدىّ ... ؟ لماذا تنحنين عندما أضمك إلى صدرى ... ولم يبحث رأسك الكليل عن كتفى ... ؟

— أيها الراعى ... !

— أكان فى الإمكان أن أضمك هكذا بين ذراعى وأنت شبه عارية ... لو لم أكن زوجاً لك على وجه التقريب ؟

— ولكن لا ... لست زوجاً لى ... دعنى ... دعنى ... إنى خائفة ... إليك عنى فأنا لا أعرفك . دعنى ، إن يديك تؤذيانى ... دعنى ... فلست أريدك !

— لم تتحدثين إلى أيتها الطفلة بلسان أمك ؟

— لا ليست هى التى تتحدث إليكَ ، بل أنا التى أتحدث ؛ إنى عاقلة مفكرة . إليك عنى أيها الراعى فأنا أخجل أن آتى بمثل ما فعلته « تايس » أو « فيليرا » أو « كلوى » اللواتى لم ينتظرن يوم زفافهن ، بل تعلن أسرار « آفروديت » وأخذن ينسلن أولادهن فى الخفاء ! .. لا ... لا ... لن أستسلم ! فى إمكانك أن تمزق قميصى فلن أستسلم إليك أيها الراعى ! سأخنق نفسى بيدى هاتين قبل أن تنال منى مأرباً

— ولِمَ كل ذلك ؟ بل ماذا صنعت ؟ لقد لمست قميصك ولم أمزقه ... ولمست نطاقك دون أن أفك عقدته . ليكن ما تشائين ! سأتركك تذهبين حيث أردت ... هيا اذهبى ... إذهبى ... لم لا تذهبين ؟

— دعنى أبكى

— لعلك تحسبين أن حبى لك قليل ضئيل حتى أسلبك من نفسك ثم أدعك تستسلمين إلى أحزانك ؟ أكنت أتحدث إليك هكذا مطولاً لو أنى لم أكن راغباً منك بغير ساعة من اللذة البهيمية التى تستطيع أية فتاة راعية أن تمنحنى إياها ؟ أما أنبأتك عيناى بما أريد ؟ ولكنك لا تنظرين إليهما أبداً ... إنك تحجبين عينيك ، وترسلين عبرتيك

— أجل ...

— ولكن ... لو شئت لوددت أن أقضى عند قدميك حياة مفعمة بالحب والهوى ، ولغمرتك بألفاظى العذبة الناعمة ، ولكنت طوقتك بذراعى هاتين ، ووضعت رأسى على نهدك ، وفى على ثغرك ، ولكنت أرسلت شعرك الجميل يداعبنى برفق وحنان ؛ ونحن نتناغى ونتبادل القبل . إصغى إلى قليلاً يا فتاتى ! لو شئت لصنعت لك كوخاً من أغصان خضر مزهرة وأعشاب طرية نضرة ملأى بالجنادب المغردة والجعلان الذهبية التى تشبه الجواهر فى قيمتها ! ... فى ذاك المكان تنفردين بى طوال الليالى على فراش أبيض واحد هو معطفى الممدود ، وهناك يخفق قلبانا إلى جانب بعضهما إلى الأبد

— دعني أبكي أيضاً

— بعيداً عني ؟

— بين ذراعيك ... وأمام ناظريك !

— أي حبيبتي ... إن الظلام أخذ ينتشر ، وبدأ الليل يرخي سدوله ، وشرع النور يتوارى في السماء كطائر مجنّح[1] لقد أصبحت الأرض بادية الظلمة . لم يعد يُرى من بعد سوى مجرى الجدول الفضي الطويل الذي يتلألأ كأنه نهر كبير من النجوم حول حقلنا ... فيالله من نور عظيم !

— بلى إنه لعظيم ... والآن هيا ، قدمي

— تعالي ... إن الغابة التي سندخل الآن بين غصونها المتهايلة التي ستعانقنا جد عميقة ، ولعله يصعب على الآلهة نفسها أن تقطعها في رائعة النهار دون أن تصاب بشيء من الرعشة والخوف . وفي تلك الممرات الضيقة لا ترى آثار حوافر آلهة الغابات المزدوجة[2] متقفية آثار إلاهة الغابات . وكذلك لا تُرى بين الأوراق عيون آلهة الغاب الخضر ، محدقة بأنظار الرجال الفزعة . ولكننا لن نخشى شيئاً ولن نفرّق أبداً ما دمنا نحن الإثنين معاً : « أنتِ ... وأنا »

— لا ، لن نخاف . إني أبكي بالرغم عني ، ولكني أحبك وسأذهب معك . إن في قلبي إلهاً ! هيا حدثني ... حدثني كثيراً ... إن صوتك لينطوي على إله أيضاً !

— أرسلي شعرك الجميل حول عنقي ، ولفّي ذراعك حول نطاقي ، وضعي وجنتيك على وجنتي . إنتبهي واحذري . يوجد هنا حجارة . اخفضي بصرك ... يوجد هنا جذور ... الأرض ندية رطبة ، والعشب ينزلق تحت أقدامنا العارية . غير أني أشعر بحرارة تهدك تحت يدي

— لا تبحث عنه ، إنه ... صغير ، إنه ... فتيٌّ ، إنه ... غير جميل . في الخريف الماضي لم يكن أكبر منه ولا أنضج من يوم ولادتي . وكثيراً ما كان صديقاتي يسخرن مني بسبب ذلك . لقد بدا نموه في الربيع مع براعم الأزهار . لم يعد في طوق مواصلة المسير

— تعالي ... إننا نمشي في الظلام ... في الدجنة ، لم أعد أرى وجهك . لم نعد نظهر ، لقد لفنا الظلام واحتوانا الليل . تعالي نذهب إلى تلك الدوحة الكبيرة ، أمام أشعة القمر . إن ظلها لكبير ... إنه يمتد إلى حيث نحن . هيا ... تعالي ! ...

— إنها ضخمة ... إنها في حجم قصر !

— قصر زفافك الذي يفتح أبوابه لاستقبالنا نحن الإثنين في جوف هذا الليل المقدس

— إني أسمع نجيجاً ... إنه حفيف النخيل

— نخيل حفلة الزفاف الصخّاب

— وهذه النجوم ؟

— إنها المشاعل

— وهذه الأصوات ؟

— إنها الآلهة

— أيها الراعي ، لقد دخلت هذا المكان وأنا عذراء مثل « أرتميس » التي يسطع علينا نورها من بعد ... من خلال الأغصان السود ، والتي قد تكون مصغية إلى حديثنا الآن . لست أدري أأحسنت في مجيئي معك إلى هذا المكان ، أم لم أحسن ولكني كنت أحس أن روحاً بين جنبيّ تنبعث وأنا معك ، روحاً قدسية بمثها صوتك في أعماقي . لقد منحتني السعادة الكاملة إذ منحتني يدك

— أيتها الفتاة ... يا ذات العينين السوداوين ، لم يَسْعَ أبوك ولا أبي إلى لمّ شملنا وتهيئة هذه السعادة لنا ، أمام مذبح مواقدهم وأنا أستبدل ثروتي بثروتك . نحن فقيران فنحن حُرّان إذن . إذا كان أحد قد سعى إلى زواجنا في هذا المساء فارفعي عينيك ، إنهم الأوليمبيون حماة الرعاة

— أي زوجي ... ما اسمك ؟

— أركاس ... وما اسمك ؟

— مليتا .

« دمشق »

عبد الغني العطري

(١) ذو جناحين

(٢) Satyres يرمزون لهذه الآلهة (بشخص) ذي شعور شعث ، وأذنين طويلتين في الرأس كآذان الحيوانات ، وقرنين صغيرين في الجبهة وساقي تيس ، وتحمل في يدها قصبا أو آلة موسيقية ... الخ (معجم لاروس الطبعة الثلاثون بعد المئتين صفحة ١٦٧٦)

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)